الفصل العاشر

اجتـثاث

الثاني من أبريل ٢٠١٥م / المعلا

لم يعد هناك أي فسحة لاستعادة الذكريات، كل ما أتاها خلال أيام قليلة كان يحاول اختطافها منها، اختطاف كل طيف لها في فكرها، أثرها، بهجتها؛ بل حاول أن يختطف كل ما هو جميل حولها.

وابل من الرصاص صباح مساء لا يهدأ ولا يكل، ينهش المباني، ويسلب أغلى ما في الأجساد، القذائف والانفجارات متناثرة هنا وهناك تهز الأرض وتدك كل ما طالته، ودويها يصم الآذان ويطغى على كل الأصوات، صيحات المقاتلين وتكبيرات الجهاد في المساجد تستحث الشباب وتستنهض الرجال للقتال، وصرخات الأطفال والنساء المذعورة والمتألمة وهم في بيوتهم أو يعدون في الشوارع هاربين حين تدوي أصوات الرعب، يحاولون الاحتماء بأي شيء والمضي نحو مجهول قد يحميهم من معلوم يحاول قتلهم.

كل ذلك يصلها وهي في بيتها وبين جدران غرفتها ترتجي الأمان، تحاول الصمود محتملة الرعب وانقطاعات الكهرباء والخدمات التي بدأت تنهار تدريجياً غير راغبة في التخلي عن أرضها، علَّ هذا ينجلي وينتهي سريعا؛ لكنه عاندها كما عاند الجميع، زاحم الدوي والأزيز حتى فكرها وهي تسترق بضع دقائق لتلقي نظرة وداع على مملكتها الصغيرة؛ جدران غرفتها الجميلة الواسعة التي اختارت كل شيء فيها بذوقها الخاص وأغدقت عليها بعنايتها تنادي

خفقات قلبها كأنها ترتجيها البقاء؛ جدرانٌ طغى عليها لون وردي فاقع ونقوش زهور زينتها بألوانها الأبيض والأصفر هبت منها نسمات ربيع الطفولة وباكورة الشباب، وحوت دفء العائلة وأحاديث قريباتها وصديقاتها وضحكاتهن تعلو في أذنيها وقد احتفظت زوايا الغرفة بأصدائها، ساعة حائط بيضاء أخذ عقربها الدؤوب يدق ليزعجها ويحصي ثواني الوداع، نافذتان صغيرتان مصنوعتان من الألمونيوم وذات الأبواب الزجاجية السوداء اللتان لم تخفيا عنها معالم الشارع والمنازل الواقعة خلف منزلها، وأسدل عليهما ستائرها الوردية ذات القماش اللمَّاع، كانتا قبالة الباب مباشرة، وسجادة كبيرة توسطت الغرفة ذات زهور متعددة الألوان وكأنها حديقة جميلة تراءى لها وهي تتأمل منظر رفيقاتها ومشاكستهن وعبثهن. سريرها الخشبي موضوع عن يمين الغرفة وعليه فراشها الوثير وغطاءها وشرشفها الوردي أيضاً، وعند أقدامه كرسي ومكتب خشبي موضوع عليه كتب مختلفة منها ما أهداه إياها والدها الذي سُعد بشغفها في طلب العلم، فيحثها على القراءة والاطلاع ويزور غرفتها ليطمئن عليها وعلى سير دراستها بعد إنهاء عمله في مدرسة حكومية –إذ كان يعمل مدرساً– أو ليناقشها مساء كل ليلة في أي كتاب حين ترغب في ذلك أو تطلب مساعدته، ظل معها في هذا الدرب حتى نالت الثانوية؛ لكن المنية اختطفه ولم تمهله حتى يراها وهي تدخل أبواب الجامعة. وعن يسار الغرفة خزانة الملابس البيضاء حوت ملابسها الأنيقة وفساتينها وعباءاتها التي اختارتها بعناية، وقربها أصيص زهور تسيقها كل يوم. هذه جنتها الصغيرة، وكل شيء جميل بحياتها موجود بها، فكيف لها أن تتناساه أو تتركه خلفها؟

طافت الذكريات بها وهي تتأمل كل زاوية من غرفتها.

الآن، لم يعد في إمكانها ذلك، صار السعي للتمسك بالحياة أهم من كل شيء.

لم يكن في وسعها أخذ كل شيء حتى كل الذكريات، جمعت بعض أوراقها المهمة في حقيبة يدها، وبعضاً من كتبها وملابسها لتبلي حاجاتها فقط في حقيبة متوسطة، ثم ارتدت عباءتها ببطء واقتربت من المرآة المعلقة بالجدار قرب خزانتها لتعدل هندامها، وقفت أمامها، تأملت انعكاسة وجهها وجزء الغرفة خلفها وهي تلف شعرها في كعكة كبيرة خلف رأسها، طفى الحزن عليها وكأنها تلقي بنظرة أخيرة على المرآة وعلى وجهها في هذا المكان، طفر الدمع في عينيها، وحين وضعت الحجاب على رأسها تدحرجت الدموع على خديها، وأفسدت تيارات الحزن ملامح وجهها الأبيض الجميل.

لا تزال تعيد شريط الذكريات بفكرها، ولم تتوقف.

إنها الليلة الأخيرة لها هنا، كانت تأمل أن يقف الزمن ولا يتحرك أبداً، أو أن تنشق الأرض وتبتلع الغزاة، ما أصعبها من لحظة حين تشعر النبتة بأنها تنتزع من أرضها انتزاعاً وتجتث اجتثاثاً من جذورها الضاربة في الأرض عميقاً، ورغم ذلك تظل تتشبث بكل ذرة في أعماق بقعتها، فلا تكون الأرض مجرد انتماء لها وحسب؛ بل روحٌ تموت بها بعد أن تفارقها، وتفقد هويتها في أرضٍ غيرها، وإن كتب لها حياة، فكيف ستكون بعد هذا الاجتثاث؟

أكملت هندامها وارتمت على كرسيها وعقدت ذراعيها على المكتب ثم ألقت برأسها عليهما منتحبة، أجهشت ببكاء مرير، لا تريد الرحيل، الموت عندها أهون من أن تمضي في رحلة غير

واضحة النهاية أو المعالم، المستقبل مجهول خارج أرضها، قاومت كل رعب عاشته طوال تلك الأيام الماضية؛ لكنها لم تستطع ثني شادي عن قراره بالرحيل.

لم تتوقف عن البكاء وهي تتذكره ملامح وجهه صباح اليوم حين عاد إليهم من جبهات المقاومة وأخبرهما بقراره.

فوجئت هي ومها بمقدمه بعد مرور بضعة أيام فقط على رحيله، كانت وقتها بالمطبخ تعد طعام الفطور، بينما كانت مها في غرفتها، خرجتا من مكانهما على الفور في استقباله والقلق عليه مرتسم على وجهيهما.

وجه مكفهر، مغبر، ولحية قد استطالت، و شعر أشعث، بدا مع الغبرة التي ألقت بحملها على قميصه وعمامته وفوطته- كالكهل المقبل على أبواب الشيخوخة، أو ربما... كالدفان، لولا بندقيته التي كان يحملها على ظهره، وسترة الذخيرة التي ظلت بعض جيوبها محتفظة بطلقاتها التي نبهتها بأنه عائد من المقاومة.

اضطربت قليلاً، لم تره من قبل بهذا المنظر حين رحل وودعها، وقتها كان يحمل البندقية وحسب، منحه إياها زميله دراسته (رضوان) حين عقدا عزمهما على الانضمام للمقاومين ودحر جحافل المتمردين الذين بانت أطماعهم منذ استيلاءهم على صنعاء، ثم هجومهم على مطار المحافظة في التاسع عشر من مارس الماضي، واستيلاءهم عليه وعلى معسكري خور مكسر لتتوالى هجماتهم وتكون المدينة بداية للزحف في أرجاء المحافظة، فما كان من رجال

عدن إلا النهوض لتصدي لهم وإعلان المقاومة ليستجيب لهم الكثيرون، وكان شادي واحداً منهم.

وكل ما عرفتاه مما جرى هو أن المطار تم استعادته بعد أربعة أيام من سقوطه بدعم من طيران عربي، وفشل رجال المقاومة في استئصالهم من خور مكسور لتظل ميدان الصراع قاس وشرس، وسمعتا عن اشتباكات أخرى في كريتر والتواهي، وهجمات همجية على الموانئ دون أن تمكنهم المقاومة من السيطرة عليها، هجماتهم المبعثرة حيناً، والمكثفة حين آخر أدت إلى ولادة مقاومين بكل مدينة، وبالمثل نزوح الكثيرين إلى مدنٍ أخرى خارج نطاق الصراع، ومنهم من غادر عدن كلها، لم يكن شادي يتصل بهما إلا ليطمئنهما عليه وحسب دون إسهاب، ومع تقطع الكهرباء الكثيرة والانترنت كانتا تسمعان الأخبار بشكل مفرق ومن الناس، ثم وصل مسامعهما أصوات الانفجارات في (الدكة) شرق المعلا اعتادا سماعه منذ ثلاثة أيام، فهل كان شادي يقاتل في الدكة حتى عاد إليهما؟

وحين رأتاه استوقفهما الذهول للحظة ثم أسرعتا نحوه لتطمئنا عليه، سلَّم عليهما بصوت مبحوح مجهد وهو يضع سلاحه من كتفه إلى قرب الباب، عيناه الواهنتين تحكيان لهما مصاعب عاشها وكأنها دهور طويلة، وليست أياماً قلائل.

الحروب أداة تسارع الزمن توصل الأشياء التي تطالها نحو النهاية، تقلص العمر، وتبلغ ضحاياها إلى أرذله قبل أوانه.

تأملت مها وجهه وما ظهر من جسده بعمق في قلق بالغ، تحاول أن تكشف ما إذا كان قد أصيب، أو ألمَّ به مرض لنمط حياة جديدة لم يألفها في الجبهة فدفعه للقدوم، تأملت ملياً حركاته وسكناته وهي ترد السلام عليه، فرأت طرف لصاقة طبية على الجزء الأيمن من جبينه تظهر من تحت عمامته، كادت تمد يدها إليها لو أن سبقها وقبَّل رأسها، فخرجت عن صمتها حين أعجزها القلق:

-بني، ما بك؟ لِمَ عدت؟ هل أنت بخير؟ هل الجرح في جبهتك عميق؟

رد عليها بهدوء:

-أنا بخير لا تقلقي... لكن...

عدل نبرته إلى الحزم وهو يقول:

-لنرحل.

دُهشتا، فقالت:

-ألم تقل أن نبقى حتى تدحر المقاومة الغزاة؟

ركن للصمت مجدداً كأنما خنقه سؤالها، ثم قال بنفس النبرة:

-أمي، لنرحل هذا المساء، لن يكون هنا أي أمان بعد الآن.

صاحت ضياء في عصبية:

-لِمَ؟ ماذا حدث؟

-لنرحل وحسب، استعدا.

-لِمْ؟ أجبني.

قال في غضب:

-قلت سنرحل وكفا يا ضياء.

ربتت مها بيده على خده، وقالت متلطفة مبتسمة:

-أنت تعب يا ولدي، اذهب واغتسل واسترح، وبعدها سنتحدث في شأن الرحيل، أنا أعلم أنك لن ترحل إلا بعد أن تحقق هدفك مع رفاقك.

أبعد يدها برفق، وقال بلهجة خالطتها عصبية حاول إخمادها بعنف:

-سنرحل يا أمي، ولا مجال للنقاش أبداً.

عادت ضياء ترتجيه وقد دمعت عيناها وهي تقول:

-لا يا أخي، سنبقى أرجوك، حتى ولو ...

قال في حدة:

-هذا قراري ويجب أن تمتثلي له.

قالت مها في دهشة:

-شادي، ما الأمر؟

-استعدا.

ابتعد عنهما واتجه نحو غرفته بخطوات ثقيلة وكأنه يجر قدميه جراً، وتركهما وفكرهما يتخبط في مستنقع الحيرة؛

تُرى ماذا كان يحمل في أعماق نفسه؟ هل أعلنت المقاومة فشلها وخاب أمله في القتال؟ هل أصابه اليأس بعد ما رأى قوة خصمهم وعناده؟ هل استسلم رفاقه للمتمردين بعد الحصار على خورمكسر رغم نجاحهم في استعادة المطار، وبالتالي ستسقط كل مدن عدن في أيديهم؟ هل لوصولهم على مشارف المدينة سبباً في قراره بالرحيل؟ هل هذا يعني بأن المُعلا على وشك السقوط أيضا؟

لم يكن ببالها أية إجابة ولا معرفة كافية عمَّا يحدث؛ لكن شيء واحد فقط كان أكيداً، أمرٌ جلل كبير على وشك الوقوع.

تفلتت منها حبال الذكرى حين سمعت صوت باب غرفتها يُفتح بسرعة ويلحقه صوته، وهو يقول في حزم:

-هيا ضياء، لنرحل، أين...

لم يكمل كلمته حين رأى حالتها، كتم حزنه هو الآخر وهو يتذكر بكاءها منذ أن أبلغها بعزمه على الرحيل.

حين تناول الغداء معها لم يخبرهما إلا أن المعارك تشتد رحاها ولا أحد يدري إلى أين ستمتد أو تستمر أو متى ستنتهي، قالت له:

-هؤلاء ليسوا بجيش ولا نظام، إنهم مجرد جماعة وسيرحلون.

رد عليها في عصبية:

-نعم هم جماعة، لكن هل تعلمين بأن النظام السابق هو من يدعمهم لتسقط العاصمة في ظرف أيام قليلة؟ وهاهم الآن يحاولون الاستيلاء على مدينتنا لولا رجال المقاومة الذين سعوا لدحرهم وعرقلة تقدمهم، هؤلاء لا يميزون بين بشر أو حجر، كل شيء يحاولون قتله وطمسه ومحوه عن وجه الأرض.

ردت في انفعال:

-وهل تركت صفوف المقاومة التي كنت متحمس للانضمام إليها، وأتيت إلينا لتقول لنا هذا الكلام وتقرر الرحيل والهرب من أمامهم حتى تسقط المدينة في أيديهم؟!

تطاير الشرر من عينيه وصاح غاضباً:

-أتقصدين بأني جبان؟

-وماذا تسمي تصرفك هذا؟ تريد منا أن نهبهم أرضنا بتخليك عن رفاقك؟

تدخلت مها:

-اهدأي، ضياء، أنا واثقة أن شادي ما كان ليتخذ هذا القرار إلا لأجلنا نحن، وهو ليس جباناً.

قالت ضياء وهي تبكي:

-لكني... لا أريد الرحيل.

قال في حدة:

-سنرحل يا ضياء وانتهى، أتمنى أن تكفي عن ولولتك هذه.

أنهى حديثه بهذا وتركها لأمه حتى تهدئها وتقنعها بالأمر وغادر البيت.

تركها هذه المرة أيضاً تفرغ شحنات حزنها رغم إشفاقه عليها في أعماقه، علَّ هذا يهون عليها وطأة الرحيل قليلاً؛ لكن الوقت لا يتسع لشيء، سار نحو حقيبتيها الموضوعتين على سريرها ليمسك بهما من علَّاقتهما ويحملهما، ثم اقترب منها وربت على كتفها وهو يقول بلطف محاولاً كتمان حزنه هو الآخر:

-أختي، هجوم المتمردين لن يميز بين أحد ولن يتوقف حتى يبيدنا، علينا الرحيل حتى تنقشع الغمة عن المدينة ما دامت الاشتباكات لا تزال بعيدة عنا، معظم أقرباءنا قد سبقونا في ذلك وأنتم لم تتخلفوا إلا بسببي، أختي للسلامة فقط، أرجو أن نعود ونجد كل شيء كما هو.

هدَّأت من بكائها، ومسحت دموعها وهي تنهض منكسة رأسها في استسلام؛ لكنها في أعماقها غير راغبة في الرضوخ لأمره، ناولها حقيبة يدها فتناولتها، وسارت بعده بخطى وئيدة صامتة، خرجت من غرفتها ثم أغلقت بابها، دلفت للصالة شبة الواسعة وهي تتأمل أركانها، تلقي عليها نظرات الوداع أيضاً؛

أرائكها البنية الثلاث المجتمعة حول طاولة زجاجية صغيرة وتلفاز وجدرانها التي جمع طلاؤها اللونين البيج والأبيض ناحية سقفه، عُلقت عليه عدد من لوحات ذات مناظر طبيعية وآية الكرسي، توسطتها صورة كبيرة لأبيها الراحل، ابتسمت ابتسامة مشبعة بالحزن حين رأته، وهي تتمتم في نفسها:

-لو كنت هنا يا أبي، أكنت ستؤيد قرار شادي؟

ثم عرجت على المزهريات التي زينت أركان الصالة الأربعة كانت هي من اختارتها وهي لا تزال في المرحلة الإعدادية حين اشتراها والدها مستبدلاً القديم منها، وفي طريقها للباب الخارجي ألقت نظرة على المطبخ الواسع عن يمينها، وغرفة شادي إلى جانبه، وغرفة أمها، وغرفة استقبال واسعة في الناحية الأخرى لتكمل الدائرة حول الصالة، ثم خرجت ليغلق الباب الخارجي، بينما تعلقت أنظارها بالمنزل، ألقت بعيون حزينة نظرة وداع أخيرة عليه من الخارج بعد أن ودعت كل زاوية من زواياه حملت عبق الذكريات والحياة منذ أن ولدت ووعت.

ابتعدت عنه وهي تدعو في أعماقها أن تعود إلى كل شيء هنا، ثم رأت سيارة أخيها تقف قربه، سيارة (بيجو) رمادية اللون، وبها مها تجلس في المقعد الأمامي المجاور لمقعده، لم تكن بأقل حزن منها، أشارت لها بالصعود، فصعدت لتجلس بالمقعد خلفها وحيدة.

حين تأكد من إغلاق البيت صعد السيارة وانطلق بها، فأسندت ضياء رأسها إلى إطار النافذة وهي تتأمل شارع (الشهيد مدرم) الواقع أمام بيتها، الشارع الذي شهد كل لحظة من حياتها منذ الطفولة إلى الآن، هذا المحل اشترت منه حلواها المفضلة والآخر اشترت منه حاجيات البيت، وثالث دخلته لأجل شراء متطلبات المناسبات والأعياد، أراجيح الطفولة لا تتوقف، وحتى حين تقطع الشوارع لأجل الذهاب لمدرستها، انقطعت الذكريات فجأة حين أصبح الشارع الرئيس كئيب جداً، انقطعت الكهرباء فابتلعه الليل، كان شبة خال من الحياة إلا من

بعض السكان الذين قرروا الرحيل مثلهم، إما بحافلات أو سياراتهم الخاصة يتحسسون الحياة مثلهم بعيدا عن براثن الموت، الكل حزين مثلها، حتى حركة السيارات بدت ثقيلة كأنما حملت أجساد البشر وأثقال همومهم معاً.

استيقظت من دوامة حزنها حين دك فكرها أمر فأخذت تبحث في حقيبتها، ثم قالت في لهفة:

-شادي، أعدني للبيت.

عقد حاجبيه، وقال في ضيق:

-عدنا يا ضياء؟ لِمَ؟

-نسيت صورة أبي، أريدها.

-لا يمكنني العودة، يجب أن نسرع.

بكت وهي تقول في حزن و رجاء:

-أرجوك، إنها صورتي الوحيدة معه بعد تخرجي من الثانوية، أرجوك، لا أدري متى سنعود إلى هنا.

قال في إشفاق:

-حسناً، اهدئي.

أوقف السيارة ثم أراد إعادتها للوراء، فقالت:

-لا داعي، أعطني المفتاح وأنا سأذهب.

لم يكونوا قد غادروا بعد الشارع حيث يطل عليه منزلهم، ناولها المفتاح ثم أخرج لها مصباحاً يدوياً من درج السيارة، وهرولت مسرعة مبتعدة عنه.

راقب اللهفة في عينيها وفي عدوها وهي تتجه إلى المنزل، كانت فقط للتمسك بذكرى جميلة عزيزة على قلبها، هو أيضا يريد أن يتمسك بكل شيء تمتد جذوره إلى أعماق هذه الأرض، لهفتها ورغبتها الكبيرة في البقاء مهما كان الوضع تقتله وتكاد تدفعه للبكاء، منذ صباح اليوم وهو يقاوم بأساً كبيراً في أعماقه، نيران الحسرة تزداد لهيبا وهي تتخذ من جنبات صدره وقوداً لها ليزداد وجعه وتتصاعد أدخنتها الخانقة مسببة اضطراباً لأنفاسه.

هو يرغب في البقاء لا لأجل نفسه ولا ذكرياته؛ بل لأجل أن يقاتل، أن يدافع عن أرضه، عن كل أهله في عدن وليس أمه وأخته وحدهما، هو الآن عاجزٌ عن ذلك، كيف لا وأمه وأخته معرضتان للخطر في أية لحظة، تمنى لو أنهما غادرتا، تذكر حين أخبر أمه في ذلك الصباح بعزمه للانضمام للمقاومة، الحماسة كانت تملؤه، وميض النصر يلوح بالأفق حين اتحد كل شباب ورجال عدن، في أعماقه يقين يصدح بذلك، اضطربت وأصابها خرس مؤقت، وكادت تنهار على الأريكة، أدرك خوفها فأمسك بيديها وقال لها ليطمئنها ويرتجيها:

-لأجلك يا أمي ولكل أهل مدينتنا الغالية، لا تقلقي، لا بد أن أكون مع أقراني.

تلعثمت وهي تجيبه:

-ونحن يا ولدي، من لنا؟

كانت ضياء تتابع حديثهما وعلى وجهها بوادر القلق، فسمعته يقول:

-خالي نبيل يقول بأنه سيغادر غداً إلى المملكة مع عائلته، أرجو منكما أن تغادرا معه.

زاد اضطرابها وكادت تبكي وهي تقول:

-وأتركك خلفي؟ هذا لن يكون، لن أفعل، لن أرحل من دونك.

رد عليها في رجاء:

-لا أعرف كيف ستنتهي هذه المعركة، لذا أرجوكِ غادري أنتِ وضياء حتى أطمئن عليكما.

قالت في حزم وقد سالت دمعاتها:

-لن أرحل إلا بك، يكفيني ما بي من ألم بعد رحيل أبيك العام الماضي، ولن أغادر إلا معك.

تضاعف الحمل على قلبه، إن انضم للمقاومة لابد أن يسعى هو ومن معه في دحر الجحافل الغازية بأقصى سرعة، لن يشعر باطمئنان إن انتكس سير المعركة في أية لحظة ووطأت الحرب بأقدامها على المدينة، في الحروب لا قيمة للزمن، لا قيمة للبشر، لا قيمة لشيء إلا لعطاياها، استمرارها أو توقفها مرهون على ما يتم في تلك الموائد الممدودة، والحوارات البراقة التي يتناقلها الإعلام الآمن، اتفاق أو اختلاف متوقف على مدى تبادل المنافع وليس على عدد الأرواح التي زُهقت وستُزهق.

في تلك اللحظة، شعر روحه تتنازع بين قطبين، يجذبانه ليوجعاه معاً، فكره منشطر تماماً، إن تتخذ سبيلاً، لابد أن يتحمل الوجع في أحدهما، وأن يتعذب بسياط الندم لاجتنابه الطريق الآخر. اتصل بها خاله بناء على رغبته محاولاً إقناعها بالرحيل معه، فباءت المحاولة بالفشل

وخرج منها يائسا بائساً، ومع ذلك مضى إلى جبهة المقاومة وهو يدعو لهما، وأمه وأخته تدعوان له بالنصر والثبات والعودة إليهما سالماً.

قطع حبل فكره حين ربتت مها على يده التي لا تزال على المقود وعيناه على ضياء وهي تقول محاولة تهدئة نفسه:

-أدرك أنك تريد العودة للمقاومة؛ فلِم عدت لينا يا ولدي؟

نظر إليها وتنهد بعمق وهو يقول:

-لن أطمئن عليكما إلا إذا رحلتما من هنا، كان في إمكانك الرحيل مع خالي نبيل وعائلته، المجال كان لا يزال مفتوحا لكنك تمنعتي لأجلي.

قالت في حزم:

-قلت لك لن أرحل من دونك.

في تلك اللحظة سمعا دوي انفجار حاد ناحية الشرق، ذعرا، أعاد بصره ناحية أخته فرآها، صاح بأعلى صوته في خوف:

-ضياء، ارجعي.

مع اعتيادها على أصوات أشباح الموت لم تلتفت إليه، ركضت بسرعة ودخلت المنزل، فقالت مها في خوف:

-هل اقتحموا المدينة؟

رد عليها في قلق:

-لا أدري يا أمي، موازين الحرب تنتكس لصالحهم، رحمتك يا إلهي.

تساءلت:

-ماذا تعني؟ ماذا حدث يا شادي؟ أنت لم تخبرنا بشيء مما جرى معك في الجبهة.

كاد يرد عليها فقاطعه دوي ثلاثة انفجارات أحدثتها قذائف خلفها هزت الحي هزاً عنيفاً، أغمضا أعينها وصموا أذانها على نحو تلقائي، وحين فتحوا عيونهم ونظروا خلفهم ازداد خوفهم.

اتقدت النيران من القذائف التي أصابت معظم منازل الحي ومن ضمنها منزلهم، شاهدا الدخان وألسنة اللهب تتصاعد منه، صاحت مها في ذعر:

-ابنتي!

هب من مكانه وغادر السيارة وعدا مسرعاً، ودقات قلبه تكاد تقف من شدة خوفه، أن يجد أخته قد ماتت وسط الحريق، ولما وصل أمامه وجد النيران تتصاعد من الجهة الخلفية حيث غرفتها وقد تحطمت بعض أجزائه، انخلع لبه مما رأى، ودخل منادياً عليها، لم يلقَ جواباً إلا أجيج النيران ترد عليه وهي تغطي معظم أثاث الصالة وتلتهمها، ودخانها يحاول التغلغل في صدره، كمم أنفه وفمه بعمامته، ثم رأى باب غرفتها مفتوحاً دخل، فشهق فزعاً.

وجدها ملقاة على الأرض بوسط الغرفة وشظايا زجاج النوافذ حولها، والنيران تلتهم سريرها وأغطيته والسجادة، لقد نفثت القذيفة لهيبها بكل المنازل المحيطة التي لم تصبها محطمة بقوة انفجارها بعض بنيانها.

حتى ضياء صارت (شيء) من الغرفة، لم تكن تتحرك أبدا والنيران تلتهم النصف الأيسر من جسدها وملابسها.

طار عقله للمنظر وارتج جسده هلعاً، أسرع نحوها وهو يخلع عمامته ويلقي بها على جسدها ليخمد النيران التي علقت بها، وهو يقول في خوف:

-لا تموتي يا ضياء، لا تموتي، أرجوكِ.

أخذت دمعاته تسابق يديه وهما تخمدان النيران من صدرها وذراعها وجنبها وفخذها وساقها، أما وجهها فبدا له بأنه قد تلقى اللهيب الأول فأحرقه قبل جسدها، كان محمرا بشدة في النصف الأيسر تعتليه مناطق سوداء وفقاقيع كثيرة، لم يشعر بلسعات النيران وهي تحرق يديه وتحاول التهام عمامته أيضاً والدخان الذي حاول خنقه، كل همه أن تنجو أخته، أن يدركها قبل فوات الأوان، وحين نجح في مهمته ترك عمامته وحملها خارجاً بين ذراعيه ليوصلها للسيارة وقد تآكلت عباءتها وثيابها، وصار ما بقي منها أكثر سوادا وجزء يصعب فصله عن جسدها، خوفه لا يزال قائما، لم يتحقق بعد ما إذا كانت لا تزال حية، ما أن رأته مها يحملها حتى زاد خوفها وخرجت من السيارة، فأشار لها بفتح الباب الخلفي ففعلت، ثم وضع ضياء على المقاعد الخلفية ومدد جسدها، وكشف الحجاب قليلاً عن رقبتها ليجس

نبضها تأكد من وجوده، أنفاسها بطيئة وغير منتظمة، اطمئن بعض الشيء لكن الوقت يسرق من عمرها، أخذت مها تبكي وتولول على حالتها، لقد نالت النيران من نصف وجهها وجسدها لم تستطع رؤية ذلك إلا بمصابيح السيارة الداخلية المضاءة، ثم قال لأمه:

-ابقي إلى جوارها يا أمي، سنذهب إلى أقرب مركز صحي لنا.

أسرعت إلى الناحية الأخرى لتجلس إلى جوار ضياء التي لا تزال غائبة عن الوعي لتضع رأسها على حجرها، في اللحظة التي انتبه بأن يمناها تحمل صورتها بزيها المدرسي وفي حفل تخرجها وإلى جوارها والدها المتوفى، تلك الذكرى التي خاطرت لأجلها، تذكر بأنها كانت تحبها كثيراً، طغى الحزن على وجهه ولهجت لسانه بالرحمات لوالده، أخذ الصورة ودسها في جيبه، وتحرك متجهاً إلى مقعده في اللحظة التي هوت فيها قذيفة أخرى على المنازل القريبة، أغمض عينيه وصم أذنيه مجدداً ليرى بعدها منزله وقد صار كله كتلة لهب عظيمة هو من حوله من المنازل، هاله ما رأى وشرد بفكره وكأن المشهد الآن يذكره بمشهد آخر، فهتفت مها به في خوف:

-أسرع يا شادي.

انتبه لها فصعد إلى السيارة وانطلق بها بأقصى سرعة، وسط دوي الانفجارات التي استمرت، وصيحات الناس الهاربة من مسرح الموت.

*****